في وقت يشعر فيه العالم كله بالشخصية الفلسطينية المتميزة نتيجة تحول الفلسطينيين من لاجئين الى محاربين لهم نصيب هام في تقرير مصير المنطقة بأسرها ، وفي وقت ثبت فيه ان الدعاة الحقيقيين للسلم المستحق لاسمه والحداثة المستحقة لاسمها هم الثوريون التقدميون العرب وفي طليعتهم محاربو الشعب الفلسطيني . وينبغي ان نشير هنا الى ان المؤلف يصدر دائما — ولا سيما في دراستيه الاولى والاخيرة — عن الافكار الرجعية للمركزية — الاوروبية بما تتضمنه هذه الافكار من احتقار للثقافات غير الاوروبية عامة . وهو بذلك يؤكد — من حيث لم يقصد — رجعية الصهيونية والتحامها العضوي بالامبريالية .

الدراسة الاخيرة بعنوان « تفسير الشاتام هاوس » — والشاتام هاوس هو الاسم غير الرسمي للمؤسسة الملكية للشؤون الدولية التي أسست عام ١٩٢٠ — تمثل هجوما صريحا ومباشرا على المؤسسة وعلى المؤرخ البريطاني الشهير ارنولد توينبي الذي قاد المؤسسة وعمل فيها مديرا للدراسات لمدة ثلاثين سنة (١٩٢٥ — ١٩٥٥) . يتركز الهجوم خاصة على ما يسميه خدوري نظرية شاتام هاوس فيما يتعلق بالشرق الاوسط وهي بالنتيجة نظرية توينبي — وعلى التأثير الذي يدعي المؤلف ان تلك النظرية قد مارسته على صناعة السياسة البريطانية فيما يتعلق بالمنطقة . يشرح خدوري في هذه الدراسة ، وبشيء من الاسهاب ، نظرية توينبي كما طورها المؤرخ البريطاني في الاجزاء المختلفة من كتابه الانسيكلوبيدي **دراسة في التاريخ** وفي بعض اعماله المستقلة الاخرى ، وكما طورها هو ومعاونوه في سلسلة **مسح العلاقات الدولية** التي نشرتها المؤسسة الملكية وارخت فيها لاحداث العصر منذ الحرب العالمية الاولى ، وفي دراسات اخرى نشرتها المؤسسة حول بعض المشاكل الراهنة . وفي عملية الشرح هذه ينتقد خدوري اسلوب توينبي في التفسير التاريخي ، كما ينتقد النتائج التي خلص اليها والتي تعتمد اساسا — في رأي خدوري — على شك توينبي في الحضارة الغربية واحتقاره لها لتأثيرها السلبي على الحضارات العالمية الاخرى . ويتخلل تحليل خدوري لافكار توينبي وشاتام هاوس اصرار مستمر دائم على ان توينبي ، ومعه المؤسسة الملكية ، قد « انحاز » الى جانب العرب لاسباب شبه غيبية(!) وان هذا « الانحياز التاريخي » قد أدى — بتأثيره على سياسة بريطانيا في المنطقة العربية — الى ضياع ذلك النفوذ البريطاني .

بالاضافة الى الدراستين الاولى والاخيرة في كتاب خدوري ، ثمة ثلاث دراسات اخرى ذات طبيعة عامة ، بمعنى انها تعطي نوعا ما من التنظير العام للمفاهيم التي تدور في اطارها بحوث خدوري في هذا الكتاب وفي غيره على السواء . وبالاضافة الى ذلك ، يشتمل الكتاب على سبع دراسات اخرى حول نقاط تاريخية محددة . اربع من تلك الدراسات تبحث بعض نقاط التاريخ المصري وهي بالتتالي مواقف القاهرة والخرطوم من القضية العربية بين عامي ١٩١٥ و١٩١٨ ، سعد زغلول والبريطانيون (وهي اطول دراسة في الكتاب وتقع في حوالي ثمانين صفحة) ، تكوين الدستور المصري لعام ١٩٢٣ ، ثم مصر والخلافة بين عامي ١٩١٥ و١٩٥٢ . بالاضافة الى هذه الدراسات الاربع عن مصر ثمة دراسة عن سوريا : السيطرة على دمشق ، ١ تشرين اول ١٩١٨ ، ودراسة اخرى عن العراق : مملكة العراق — نظرة الى الوراء . وثمة ايضا دراسة ثالثة واخيرة ، عن فلسطين : السير هربرت صاموئيل وحكومة فلسطين . لن ندخل في اي جدل حول هذه الدراسات المحددة وان كنا فيما بعد سنذكر بعض الملاحظات حول الدراسات المكرسة لهربرت صاموئيل . ولكن ماذا يقول خدوري في الدراسات الثلاث التي وصفناها فيما سبق بأنها تقدم نوعا من التنظير العام للمفاهيم التي تدور في اطارها بحوثه كلها ؟

في دراسته عن « الفكرة العربية والسياسة البريطانية » يحاول خدوري ان يوحي بأن فكرة الوحدة العربية انما استمدت عنصر قوتها الاساسي ليس من الواقع العربي نفسه ومن الاخطار المحدقة به ، بل من التأييد البريطاني لتلك الفكرة ، ذلك التأييد الذي قصد منه سياسيا مناهضة المطامح والمصالح الالمانية ثم الفرنسية في المنطقة ، والذي عبر عنه نظريا وباخلاص، من جهة ثانية، اكاديميون كالبروفيسور غيب وسياسيون كالجنرال سبيرز ، يرى خدوري ان تأييد بريطانيا لفكرة الوحدة العربية أعماها عن الفهم السليم للتنوعات الكثيرة الكامنة في المنطقة . ما هي تلك التنوعات الكثيرة ؟ يقدم خدوري في دراستين متتاليتين عنوانهما « الاقليات » و« الديانة والسياسة » نظرة صهيونية بديلة لمفهوم